

التوبة.. أبرز مظاهر رحمة الله بعباده



«إن من أبرز مظاهر رحمة الله بعباده، أنه فتح لهم الباب واسعاً للتوبة والعودة إليه مهما كبرت ذنوبهم وكثرت، وفي أي وقت وفي أي مكان، هو حاضرٌ لقبول توبتهم بدون أي واسطة، بل هو سبحانه حتى لم يسمح لهم باليأس والقنوط من رحمته، إذ أمر رسوله أن يبلِّغ الناس: (زَيْدٌ عِبَادِي أَنزَلِي أَنزَالِي الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الحجر/ 49)، (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) (الزمر/ 53).

وقد ورد في حديثٍ قدسيٍّ: «يا بن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك، يا بن آدم، لو لقيتني بتراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بترابها مغفرة». ولا تقف حدود كرم الله عند ذلك، بل أعلن سبحانه أنه لا يكتفي بغفران الذنوب، بل هو يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهرين.

وفي موضوع التوبة، ربما يسأل البعض: ألا يستدعي تشريع التوبة والدعوة إليها، إغراءً للعبد بالمعصية، لكون الإنسان إذا أيقن أن الله سبحانه وتعالى يقبل توبته رغم اقترافه المعاصي، فسيزيد ذلك من جرأته على ارتكاب المحرمات والانهماك في الذنوب، وسيدفعه ذلك إلى التمادي في المعاصي.. طبعاً الأمر وارد أن يتصرف ضعاف النفوس ومن غرَّتهم الدنيا بهذه الطريقة، لكن لعبتهم ستكون مكشوفة، فالأمر مرهونة عند الله بالنيّات وليس بالأقوال، وأذكر هنا ونحن في شهر محرم، نموذجاً لهذه اللعنة المكشوفة، لعنة المجرم عمر بن سعد الذي حاول استغلال فكرة التوبة كي يشرعن لنفسه وللآخرين خياره الدمامي، قائلاً يومها بعد أن عرض عليه ابن زياد قيادة الجيش لمقاتلة ابن بنت رسول

أترك ملك الرّي والرّي منيتي أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
وإنّ إله العرش يغفر زلّتي ولو كنت فيها أظلم الثقلين

يقولون إنّ إله الخالق جنّةٍ ونار وتعذيب وغلّ يدين

فإن صدقوا فيما يقولون فإنّني أتوب إلى الرحمن من سنتين

هنا الحجّة واهية، ولم يكن هذا الطاغية في موقع مَن يتوب إله عليه.

علينا أن ننظر إلى مفهوم التوبة في سياق الرحمة الإلهية، فالغفران والصّفح عن الذنوب لا يحصلان إلاّ لأنّ رحمة إله وسعت كلّ شيء، وهو الذي سبقت رحمته غضبه.

إنّها رحمة خالصة بالعبد، وهي حماية له، على عكس ممّا يتصوّر البعض. الباب المفتوح من إله يعطي أملاً للعاصي كي يتوب ويتراجع. أمّا الباب الموصد، فإنّه يدفع العاصي إلى التمادي.. فكم وكم من الشباب عادوا إلى رحاب إله لاعتقادهم وإيمانهم بأنّ إله يقبل توبتهم مهما عظمت وكبرت!

وهذا ما تُشير إليه الآية: (وَإِذَا يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِكُمْ وَأَنْ يَرْيَدُ السَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهْوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) (النساء/ 27).. إذاً التوبة تمثّل علاجاً بقدر ما تمثّل إسقاطاً للماضي.

كيف تتحقّق التوبة؟!

ولكن كيف تتحقّق التوبة؛ هل يكتفي إله من عباده بأن يعلنوا التوبة حتى يحظوا بها؟ نعم، باب التوبة مفتوح لمن يريد، لكنّ لذلك مقدّمات ذاتية.

أولّها الاعتراف وترك المكابرة، بأن يؤكّد المرء لنفسه أنّّه عصى إله، وأنّه أساء في علاقته معه، ثمّ يندم ويستنكر فعلته، ويشعر بأنّه ما كان ينبغي أن يُبادل إله بالعصيان.

وبعدها، عليه أن يصلح ما بدر منه وما اقترفته يده تجاه الخالق وتجاه المخلوق.

وهنا نذكر حديثاً ورد عن الإمام عليّ (ع)، عندما سمع رجلاً بحضرة يتحدّث عن التوبة، فحدّث له الإمام آليّات التوبة:

1- الندم على ما مضى.

2- العزم على ترك العود إليه أبداً.

3- أن تؤدّي إلى المخلوقين حقّهم حتى تلقى إله أملكس ليس عليك تبعه.

